

سافونارولا

من المظاهر العجيبة التي تبدأ بها النهضة ، ويبدأ بها استيقاظ الشعوب ، ظهور رجال في مختلف مناحي الحياة ، في فترة معلومة ، لا يكون هؤلاء الرجال بالطبيعة من فكر واحد ومن مشرب واحد ، ولو كانوا يشتغلون بفن أو علم واحد ، وإنما تجتمعهم وتلاطم آرائهم ونظرياتهم هو الذي يخلف أثراً في الحياة ويوجد نشاطاً تهب منه النهضة . والمتتبع لتاريخ النهضة يجد هذا المظهر واضحاً بيناً . فالنهضة الأوربية التي عمت إيطاليا في القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى البلاد الأوربية الأخرى تميزت بظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ ، كما تميزت أزمان الثورة الفرنسية . وكان هؤلاء الرجال نمواً من الأرض الإيطالية ، وظهروا فجأة في جميع المدن التي كانت عندئذ عواصم لدويلاتها العديدة المتنافرة ، كما تنمو الأشجار من باطن الأرض .

لقد قيل إن النهضة الأوربية الحديثة ، وهي وليدة تلك النهضة التي عرفتها إيطاليا في القرن الخامس عشر ، قد نشأت عن أسباب أهمها سقوط القسطنطينية في يد الأتراك المسلمين ، وفرار علماءها بما كان بين أيديهم من آثار الفكر اليوناني إلى البلاد الإيطالية . قد يكون هذا القول صحيحاً في جانب منه ، ولكن المبالغة فيه قد لا تكون صحيحة . وقد فر حقيقة علماء من مدينة القسطنطينية ، وفروا بجزائن كتبهم وعلمهم الذي تلقنوه عن اليونان . ولكن هل كانوا يحدثون نهضة لو لم تكن العقول في البلاد الإيطالية متهيئة لاستقبال ما يأتون به من علم وفن ؟ الواقع أن التفكير في الماضي المجيد لم ينقطع من أرض إيطاليا ، وكان هناك رجال يتألون للمجد الزائل ويعملون للاحتفاظ بالتراث القديم ، ولكنهم كانوا متناثرين في مختلف البلاد ، فلا يكاد يظهر لمجهودهم أثر لأن البلاد كانت قد توزعت وأصبحت نهياً في أيدي الطامعين . غير أن الأرض الإيطالية صارت فجأة خصبة بالرجال قبل عصر

النهضة بقرن أو قرنين ، أى قبل فرار العلماء من القسطنطينية ؛ إذ برز جمع من الرجال الممتازين في القرن الثالث عشر . وهل نحتاج للتدليل على صحة هذا القول إلى ذكر دانتى الشاعر الإيطالى الذى نشأ وعاش في مدينة فلورنسا في القرن الثالث عشر وصار شاعراً لجميع الأزمان التالية ؟ وهل نذكر بطلا خياليا كنفولا دى رينزو ذلك الذى أراد في القرن الرابع عشر أن يعود بروما وبايطاليا إلى سالف مجدها في عصر الرومان ، وقد استطاع أن يحقق حلمه ولو لمدة قصيرة ؟ هل نذكر كبار الفنانين من مصورين ومثالين عرفتهم إيطاليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر من أمثال جيوتو وبيزانو ؟ يكفي أن نقول إن أرض إيطاليا أخذت تنبت الرجال في مختلف المدن والدويلات من النوع الذى يترك ذكرى مرسومة على وجه الأرض ، ثم تتابع هؤلاء الرجال وتشعبت آراؤهم وتلاطمت مجهوداتهم فكانت النهضة .

ظل يحتفظ لايطاليا بريق من مجدها السالف ، بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، هيئتان : إحداهما حقيقة والأخرى خيال . فالأولى وهى الحقيقة ، وهى الكنيسة الكاثوليكية التى تتمثل فى البابا وكرادلته وسيطرته الدنيوية والدينية . والثانية وهى الخيال ، وهى سلطة الامبراطور الرومانى الذى أوجدهته الكنيسة ، وهو لا يمت إلى أرض إيطاليا بشئ ، بل هو فى الحقيقة عاهل ألمانى تعترف له الكنيسة بسيطرة اسمية على إيطاليا لمجرد قوته وتفوقه فى الأداة الحربية التى كانت معروفة عندئذ .

وقد مضت على إيطاليا دهور وقرون فى النزاع بين هاتين السلطتين : سلطة البابوية الحقيقية فى إيطاليا بصفة خاصة وتمتد روحانيا إلى جميع البلاد المسيحية ، وسلطة الامبراطور التى يمنحها إياه البابا أو يضطر إلى منحها ، ولا يؤيدها فى الحقيقة غير القوة وليس لها من سند قانونى إلا الخيال .

وكان تطاحن هاتين السلطتين عادة على أرض إيطاليا ، وكانت الغلبة تتداول بين الفريقين ؛ ولكن النصر فيما أعتقد كان يرجح دائماً كفة السلطة الثابتة الباقية وهى سلطة البابوية . على أنه كان من نتيجة هذا التطاحن ضعف السلطتين وخروج كثيرين من الأقوياء ومن المفكرين عليهما ، وانتهى الأمر إلى ما أسلفنا من انقسام إيطاليا إلى تلك الدويلات الصغيرة المختلفة المتنافرة

ومن بزوغ التفكير الحر الذي لا يتقيد كثيراً بأوامر إمبراطور أو كنيسته .
 وما لا ريب فيه أن روما في تلك العصور التي أشرنا إليها والتي
 أخذت تظهر فيها بشائر النهضة كانت مطمح أنظار العالم ؛ بيد أننا لا نستطيع
 أن نقول إنها البلد الذي قامت فيه نهضة إيطالية ، بل ربما كانت روما بمرکزها
 العتيق بوصفها مقراً لحكم البابا ، أقرب إلى المحافظة على القديم من غيرها من
 الدويلات الإيطالية . ولا تتمثل النهضة الإيطالية في مدينة البندقية مع بعدها
 كل البعد عن بلاط روما ، واتصال أبنائها بجهات العالم أجمع ، وما كان لها من
 أسطول تجارى واسع ومعاملات مع مختلف الأقطار ؛ فان البندقية كانت تهتم
 بالتجارة والمعاملات التي تدر مائلاً أكثر من اهتمامها بالنزعات الفكرية ؛ فهي
 تضع المال في المرتبة الأولى ونتاج الفكر في المرتبة الثانية . وإنما تتمثل النهضة
 حقاً بأجلى مظاهرها في بلد صغير في وسط إيطاليا كان مركزاً لدويلة صغيرة
 ولكنها دويلة قوية بنظامها ورجالها الذين نبغوا في مختلف العلوم والفنون ،
 وهذا البلد هو مدينة فلورنسا .

كانت مدينة فلورنسا بنظامها قابلة لأن تكون مركزاً للنهضة . فنظامها
 فيه شيء كبير من الحرية ، وأبناؤها عُيِّرَ على مجدها فيجبون أن تكون مدينتهم
 خير المدن في العالم . ولسنا نريد أن نعرض لوصف نظام الحكم في فلورنسا ؛ فانك
 تجد له شرحاً وافياً في الكتاب الذي أثار موضوع هذا المقال وظهر حديثاً في
 عالم المطبوعات العربية (١) ، ولـسن يكتفى أن نقول إن هذا النظام الجمهورى كان
 بديعاً إذا لا حظنا العصر الذي وجد فيه ، وكانت الأسر في مدينة فلورنسا
 تتنافس في تشجيع الفنون والآداب وهي بترائها كانت تستطيع أن تفعل كثيراً .
 وكانت أبرز أسرة في ذلك العصر أسرة مديتشي ، وهي أسرة عريقة استطاعت
 في قرون أن تكون لها الصدارة على الأسر الأخرى بترائها ؛ إذ كانت تعمل
 في التجارة وتمتهن الأعمال المصرفية ، واستطاع زعيمها في أواخر القرن الرابع عشر
 أن يكون المسيطر على الأمور في مدينة فلورنسا ، إلا أنه كان بعيد النظر حكياً
 فأبى أن يمس النظام الجمهورى واتخذ وسيلة للحكم ، فكان الحاكم المتصرف في

(١) «سافونارولا» تأليف الدكتور حسن عثمان ، أصدرته دار الكاتب المصرى ،

ثوب الزعيم الذي ليس له من الأمر شيء . وعندما توفي كوزيمودى مديتشي حاول خصومه من زعماء الأسر الأخرى أن ينحوا أبناءه ، ولكن لورنزو استطاع أن يحل محل أبيه في الزعامة ، وهو الرجل الذي ترك اسماً مخلداً في مجال الآداب والفنون ، وجعل من فلورنسا قبلة يقصدها كل من يريد الاتصال بالحياة الفكرية . وكان لورنزو حر التفكير ، أقبل على التراث اليوناني والروماني في نهم ، حتى اتهم في دينه وحتى ظنت به الظنون وهو لا يبالي ؛ فكانت حياته أقرب إلى الحياة التي كان يحياها المترفون في عصر اليونان والرومان في الأزمان الوثنية . وكان يبذل النفيس في سبيل اقتناء الكتب القديمة ، ويشجع على الترجمة والنقل . وقد وجد العلماء الذير فروا من القسطنطينية منه ترحيباً ، وصار قصره بمثابة أكاديمية تلتقي فيها المحاضرات في شتى العلوم القديمة ويحضرها الشبان والرجال ويناقشون ما جاء في هذه المحاضرات من آراء جديدة .

ولا نريد أن نستمرسل في وصف عصر لورنزو دي مديتشي ؛ فهو عصر يشار إليه كلما تكلمنا عن النهضة الأوربية .

وسمع ذلك ظل لورنزو محتفظاً بخضوعه الظاهر لتعاليم الكنيسة وكان يخشى غضب البابا عليه ، وعند ما حضرته الوفاة وهو في الرابعة والأربعين من عمره دعا إليه راهباً ليعترف له بأثامه حتى يستطيع بالاعتراف أن يمحو هذه الخطايا . وأرسل في طلب راهب شاب كان قد أخذ يشتهر بين الناس في فلورنسا بحماسة الدينية ، وهو شاب من أهل مدينة فرارا ولكنه انتقل إلى دير الرهبان من مذهب الدومينيكيين في فلورنسا وهو دير سان ماركو ، وكان هذا الشاب مخلصاً في دينه وجريئاً .

ودخل الشاب على الرجل العظيم ، واعترف له العظيم بذنوبه . وهنا اختلفت الرواية ؛ فيقال إن راهب الجريء عنفه تعنيفاً شديداً وأبى أن يستغفر له عن خطاياهم . ويقال إنه استغفر له بعد هذا التعنيف وفي كلتا الحالتين كانت جرأة لا يقدم عليها إلا شاب مخلص لدينه لا يهمنه بأس العطاء ، كما كان وقتئذ وكما بقي دائماً ، جاكوسو سافونارولا .

كان سافونارولا في الأربعين عندما دعى ليزور لورنزو عظيم فلورنسا وهو على سرير الموت ، وقد طارت له شهرة في تلك المدينة العابثة وفي وسط عظماؤها

المنغمسين في اللذات بالتقى والصلاح ، ولكنه لم يكن اشتهر بما اشتهر به فيما بعد من تملك الأفتدة والتسلط على الأذهان بسحر كلامه في المواعظ التي يلقيها . والحقيقة أن سافونارولا لم يكن خطيباً مفوهاً ولم يكن حسن البيان بليغ العبارة ، بل لم يلحظ المستمعون إلى مواعظه في تلك الأيام في قوله ما يميزه على أي واعظ من الوعاظ العديدين في الكنائس الأخرى ، بل ربما كان أقل من غيره بياناً ، وإنما كان يسلك في مواعظه مسلكاً لم يك يومئذ مألوفاً ؛ فقد ألف الفلورنسيون أن يكون الخطيب ، حتى الخطيب الواعظ في الكنائس ، مطلعاً على الشعر القديم من آثار اليونان والرومان . فكان الواعظ يقلد القديس من الخطباء ولا يأنف أن يقول شعراً أثناء مواعظته ، ولا أن يضحك السامعين بنكاته ولعبه بالألفاظ . فكان الفلورنسيون ، ينتظرون في الكنيسة مثل ما ينتظرون في دور المسارح حديثاً عذياً فيه رنين وفيه فكاهاة ؛ فلا يجمل بأهل فلورنسا المتمدين أن يغشوا الكنائس فيسمعوا تأنيباً على الذنوب وتهديداً بالعقاب ، فوعاظهم رجال من بنى عمومهم يقومون بالوعظ على أنه مهنة يراد بها تذكير الفلورنسيين بدياتهم كي يكون للكنيسة نصيب من دنياهم .

ولكن الراهب سافونارولا كان رجلاً من طراز آخر ، رجلاً قوى الاعتقاد بالدين شديد الحماسة في همل النفوس على الاستمسك بالفضيلة ولم يكن يتألق في عباراته ، بل تجرد في مواعظه خشونة قد تتحول في بعض الأحيان إلى عنف . على أن أكثر ما أثر في جمهوره هو حماسه الدينية .

لسنا نريد أن نعرض لحياته تفصيلاً ، ولا أن نذكر كيف استولى على عقول أهل فلورنسا ، وإنما نريد أن نذكر أنه استطاع تدريجياً أن يجد السبيل إلى قلوب سامعيه . فكان أهل المدينة يتقاطرون على مواعظه ، وكانت كلماته تؤثر فيهم فيذرفون الدمع غزيراً . وبدأ يندبهم ويطلب إليهم أن يقلعوا عن سظاهر الحياة الدنيا ، وأن يتركوا ما انغمسوا فيه من ملذات ، ويتوعددهم بالعقاب إن هم استمروا في لهوهم ، وأخذ القوم يستمعون إليه وتتفتح أذهانهم لمواعظه . ولم تمض سنوات حتى صار سافونارولا أهم رجل في مدينة فلورنسا . وكان من خصائص وعظه أنه كان يتكهن بما يدبره المستقبل للمدينة وللمدن الإيطالية ، وبكوارث تحمل بها . وحدث فعلاً أن تعقدت الأمور في إيطاليا

وتحققت تكهناته ، وزاد اعتقاد الناس به وطارت له شهرة في أنحاء البلاد الإيطالية .

وجاء وقت صار حكام المدينة يأتمرون بأمر سافونارولا ؛ فهو بين سنتي ١٤٩٤ ، ١٤٩٨ كان هو الحاكم الحقيقي للمدينة والسيطر على أمورها ؛ كل ذلك كان بسحر كلامه البعيد عن التنميق ، الحشن في اللفظ والعبارة ، المليء بالتهديد والوعيد ، المعتمد على التكهنات وما توحيه الأحلام .

كيف كانت الخطوات التي سيطر بها سافونارولا على أهل فلورنسا ؟ ذلك ما نستطيع أن نقرأه في تاريخه . على أنه يتعين علينا أن نكون على ثقة من أمر واحد ، هو أن هذا الرجل كان مسوقاً بأنبيل العواطف ؛ فهو كما أشرنا أكثر من مرة لم يكن خلاباً بجمال العبارات وحلاوة الأسلوب ، وإنما كان خلاباً بحماسة و يقينه . واقفاد له فلورنسا ونبذت ما كانت عليه من انكباب على المذات ، وانقلبت تقية تتحلى بالفضائل ، أو على الأقل تظهر بمظهر ذى الفضيلة . ولكن العجيب في الأمر أن يتأثر الناس بهذا الراهب حتى يستشروه في كل أمر من أمور دنياهم ودينهم ، ويأخذوا برأيه في تصريف أمور الحكم ؛ وهو يشير عليهم حتى في هذه الأمور بدافع من ماذا ؟ من تجربته ؟ لا ! بل من تأثير الأحلام والرؤى .

ومع ذلك لم يكن الراهب رجلاً مشعوذاً ولا رجلاً مخبولاً ، وإنما كان حسن الرأي في أكثر الأمور . وقد بدت على مدينة فلورنسا في ظل مشورته ، إن لم نقل حكمه ، مسحة من الوقار كان من الواجب أن يعجب بها رجال الدين ، وكان من الواجب أن يغتبط لها البابا رأس الكنيسة . ولكن لا هؤلاء ولا ذاك ارتاحوا لما بلغه الراهب من مركز بين أهل المدينة التي اتخذها مقاماً . لم يرتح رجال الدين لمنزلة سافونارولا لأنه جذب أهل المدينة إليه فلم يعودوا يستمعون لغيره من الوعاظ ، وصار أهل المدينة يفضلون رهبان كنيسة سان ماركو على غيرهم . وقد اصطبغت المدينة بصبغة الجذ ، فلم تبقى هناك سوق لأولئك الرهبان الذين كانوا يغشون دور العطاء ليرتزقوا منهم . ولذلك أخذت نفوس هؤلاء الرهبان تمتلئ حقداً على الراهب الذي سيطر على المدينة ، وكان قد بلغ وقتئذ مرتبة رئيس الرهبان في دير سان ماركو .

أما البابا ، فذلك له شأن آخر وقصة أخرى .

قد يكون من أكبر الدلائل على ثبات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية واستقرارها على الدهر ، أن تولى عرشها رجال من أمثال إسكندر الثالث ويوليوس الثاني وليون العاشر في عهد النهضة الإيطالية . ففي تلك الأيام نزع أكثر الناس ، لاسيما المتعلمون ، أمور الدين وأخذوا بأسباب الدنيا ، فأغرق في ذلك فريق أعجبوا بآثار اليونان والرومان ، فأرادوا أن يقلدوهم في كل شئ حتى في وثيقتهم . واعتدل فريق فأخذ يقبل على آداب اليونان والرومان ويعجب بذلك الماضي المجيد ، ولكنه كان لا ينسى واجبه الديني .

وهؤلاء البابوات الذين ذكرناهم على ما بهم من فضائل كانوا رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ؛ فهم يمثلون العصر الذي عاشوا فيه كل التمثيل ، وهم بذلك يدلون على متانة ذلك النظام العتيق ومرونته وهو نظام الكنيسة . لقد اتجه الناس نحو أمور الدنيا ، فأدت مرونة النظام إلى أن يكون البابوات رجال دنيا ومثلوا بذلك عصرهم . فاسكندر السادس من آل بورجيا الاسبانيين كان رجل دنيا بمعنى الكلمة . والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندافع عن مسلكه ، كما أن المؤرخين ، حتى الذين كتبوا منهم تحت إشراف الكنيسة ، لم يستطيعوا تسويغ أعماله ومسلكه في سياسته وفي شخصه ، على أنه لا يستطيع أحد أيضاً أن يتهمة بأنه كان يهمل واجباته الدينية . وكان على الغالب محبوباً من الذين يتصلون به . ففي قاسته الطويلة نوع من المهابة ، وكان يقيم الحفلات الباهرة كأي ملك من الملوك ، وكان يحب الفكاهة ؛ ومع ذلك كان لا يتورع عن إزالة أي خصم سياسي من طريقه بالحيلة أحياناً وبالعرف أحياناً كثيرة .

أما يوليوس الثاني فكان من أعظم البابوات الذين جلسوا على عرش القديس بطرس ، وهو الذي عمل لاعادة بناء تلك الكنيسة العظيمة بروما التي تعد أعجوبة الكنائس جميعا ، وهو الذي استخدم أعظم رجال الفن من أمثال رافائيل وميكل أنجلو . وكان رجلا قليل الشهوات لا يؤخذ عليه شئ في مسلكه أيام توليه عرش البابوية ، ومع ذلك كان رجل دنيا ؛ فهو يجب أن يسير الجيوش على خصومه ويتولى قيادتها بنفسه ويحاصر المدن ويلبس أحياناً عدة القتال .

أما ثالثهم ليون العاشر فهو من آل مديتشي ، وكان يشجع العلوم والفنون ويقال إنه أولع بكتب الأقدمين حتى كاد يفضل أساطير الوثنية على حقائق

المسيحية . وكان رجلا شديد الحيلة مع خصومه متقلبا في سياسته لا يثبت على وعد أو عهد .

تلك صور البابوات الذين عاصروا النهضة في كلمة ، فهم رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ، وهم رجال يمثلون عصرهم حق التمثيل .

وقد عاصر سافونارولا أسوأهم في السياسة وفي المسلك الشخصي . أما المسلك الشخصي للبابا إسكندر السادس فلا نريد أن نخوض فيه ، لأن كتب التاريخ ذكرت ما فيه الكفاية ، وقد يبالغ بعض هذه الكتب أحيانا ، ولكن أشفقها على هذا البابا لم يستطع أن يجعل من مسلكه الشخصي صفحة نقية . وهذا دون أن نتعرض لما روى عنه من قصص وما أضافه إليه خيال الناس ، فهو أكثر البابوات موضوعا للاقتاويل . وأما سياسته العامة مع الدويلات الايطالية ومع الأمم الأخرى التي كانت تخضع له في دينها ، فهي سياسة منطوية على المكر والحديعة ، فهو لم يكن يفنى بعهد إذا رأى أنه يقف في طريق أغراضه . وكان لا يؤمن جانبه مهما بذل من وعود ، وكان لا هم له في سياسته إلا الاعتداء على البلاد ليهيء لأبنائه المعترف بهم علنا إمارات يحكمونها .

ونعود فنقول إن أكبر دليل على متانة نظام الكنيسة الكاثوليكية أنها هضمت رجلا مثل البابا إسكندر السادس ؛ إذ لم يستطع مع كل ما أتاه أن يودى بالكنيسة ونظامها ، بل ظلت الكنيسة قائمة متينة البنيان محترمة في أعين الناس جميعا .

سيطر سافونارولا على مدينة فلورنسا وصار حاكمها طوع إشارته . ولم يكن الراهب خفيف الوطأة قليل التسلط ، بل أخذ ينفذ آراءه في عنف وشدّة ، فهو قد دعا الناس إلى الأخذ بأسباب الفضيلة وإلى نبذ وسائل الترف ، ولم يتركهم لضائرهم ، بل أخذ يبتدع الوسائل لمراقبتهم . وكانت إحدى الوسائل التي اتخذها وضاق بها الناس أن جعل من الصبية عيوناً على أهلهم ، فكان الصبية ينقلون إليه أخبار أسرهم ويصفون له ما ارتكبه آباؤهم أو أمهاتهم من آثام بشراء أدوات الزينة مثلا . وقد طلب إلى هؤلاء الصبية أن يجمعوا له هذه الأدوات . وفي أيام موسم المساخر ، التي كانت مألوفة في فلورنسا كما هي مألوفة في المدن الأخرى من إيطاليا ، جمع أدوات الزينة والترف التي نقلها إليه الصبية وأقام

ما سماه عيد إحراق وسائل الترف ، ولكن هذا العيد لم يكن أقل سخرية من الساخر نفسها .

ولقد غلت النفوس بهذا التدخل في حياة الأسر المرة بعد المرة ، وضاق الناس لاسيما الأغنياء به ذرعاً ، وأسرف هؤلاء الصبية الذين كانوا يأترون بأوامر الزعيم الراهب ، وضاعت حياة التجار الذين كسدت بضاعتهم بسبب تسلط الزعيم وتحريمه على الناس شراء ما هو كمالى ، مع أن مدينة مثل فلورنسا كانت من أكثر المدن ثراء وإقبالا على الزينة والترف . وهكذا أخذت النفوس تنصرف عن الراهب . ولكن الناس لم يكونوا قادرين على أن يبدوا استيائهم جهره بسبب بسيط ، هو أن كل الرجال الذين كانوا يتولون الحكم في تلك الفترة كانوا من أنصاره .

وكان في النظم الجمهورية التي تتبعها فلورنسا على ما بها من فضائل عيب أساسى واحد ، هو تغيير أعضاء مجالس الحكم في فترات قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر ، وكان هؤلاء الأعضاء دائماً في تلك الفترة من رجال سافونارولا . وكان من المستطاع أن يظل تسلط الراهب فترة طويلة لو أنه كان كبير الحيلة في سياسته . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقول إن سافونارولا لم يكن في تدبير الأمور على جانب كبير من الذكاء والدهاء معا ولكن كان يفسد هاتين الميزتين عاملان : أولهما شدة التحمس التي كانت تدفعه إلى نوع من التسرع . والثانى إجماعه على ماتوحيه الأحلام . وقد نفهم ذلك منه حين تلقى نظرة على صورته ، فذلك الوجه المصفر النحيل ، وذلك الفم الواسع ذو الشفتين الغليظتين اللتين نكاد نتبين ارتعاشهما في الصورة ، كل هذا يدل على أنه رجل يعيش بأعصابه ، وإن كانت العينان الواسعتان تثبتان في الوقت نفسه بأنه رجل خاضع للأحلام .

وقد نحب أن نسأل أين كانت في هذا الزمن شخصية فذة من أبناء فلورنسا ، هي شخصية رجل عرف بكل الصفات التي تتعارض مع صفات سافونارولا ، وهي شخصية ذلك الكاتب الذى اتخذ في كل زمان مثالا للواقعية الجريئة وأعنى به نيقولا مكيا فيلى ؟ الواقع أن مكيا فيلى كان وقتئذ صبيبا ليس ببعيد أن يكون من الصبية الذين سلطهم سافونارولا على أهلهم كما يتسلط الوباء . ولكن لم يثبت مطلقا أنه كان منهم فهو إذا كان قد أشار إلى الراهب بشئ

من الاجلال فهو لم يفعل ذلك غير مرة في جميع كتبه ، مما يدل على أن سافونارولا لم يترك في نفسه أثراً . والواقع أن الرجل الذي كان يرى في قيصر بورجيا ابن البابا إسكندر السادس مثالا لما يجب أن يكون عليه الأمراء مع كل ما اشتهر به هذا العامل من قسوة وجرائم ، لا يمكن أن يعطف على الراهب وأحلامه في تحقيق عالم مليء بالفضيلة .

ولا ريب في أن سافونارولا كان يريد أن يحقق ما لا يمكن تحقيقه ، وكان يريد أن يرجع بعجلة الزمن القهقري . ولكن العصر الذي كان يخضع فيه الناس للأنبياء قد مضى ، وكانت الروح الوثنية قد تخلت الطبقة العليا في جميع الدول الايطالية واتصلت حتى بالدوائر الدينية ، فكيف ينتظر أن يستطيع رجل مثله أن يغير من طبيعة الناس ؟

ومع ذلك كان من المحتمل أن يظل سافونارولا مسيطراً على المدينة ومؤثراً في الدويلات الايطالية لو لم تتعارض سياسته مع سياسة البابا ، فهو في حماسته الدينية وفي تسلطه على القلوب والعقول كان جديراً به أن يكون من أقوى عمد الكنيسة الكاثوليكية ، فقد استطاع لفترة طويلة أن يحيى بذور الدين في مدينة كانت من أبعد المدن عن الدين . ولاريب في أن البابا اغتبط بذلك ، وهذا هو السبب الذي من أجله رفعه إلى مرتبة رئيس دير سان ماركو . وكان سافونارولا من جهته حريصاً على إرضاء رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه في اندفاعه وحماسه لمدينة فلورنسا نسي أن للبابا إسكندر السادس سياسة خاصة ونسي أنه لا بد أن يخضع للبابا في سياسة أمور المدينة إذا أراد إرضاءه . ولكننا نراه يؤازر خصماً للبابا في سبيل صالح فلورنسا ، ونراه يمجّد أعمال خصم للبابا وينادى به منقذاً للحالة بايطاليا في سبيل تحقيق النبوءات التي أعلنها من منبره . يضاف إلى ذلك أن تلك الظروف لم تكن لتخفى على الخصوم الكثيرين للراهب ، وهم يعرفون كيف يستفيدون منها . ولا ننسى أيضاً أن تقوية فلورنسا على الصورة التي عمل لها الراهب ، كان مما يجعلها تقف حائلاً في سبيل ذلك البابا الذي كان من أمانيه أن يجمع تلك الدويلات الايطالية ، أو على الأقل أن يجمع أكثرها في ملك واحد ، تحت ابنه قيصر بورجيا ، وكان إقليم فلورنسا من أقرب الأقاليم إليه . وكلما ازدادت قوة المدينة

تحت تأثير حماسة الراهب ووطنيته ، صارت لقمة ليس من السهل ازدرادها . وكان البابا مع ذلك يحسب حساباً لنفوذ الراهب وسلطانه القوى ، فبدأت بينهما تلك الحوادث التي لا نريد أن نذكر تفاصيلها لمن يستطيع أن يقرأها في الكتاب الذي أتيح لقراء العربية . وإنما نعرض للطريقة الطريفة التي ابتدأ بها البابا هجومه على الراهب ، فقد أرسل إليه خطاباً لطيفاً يدعوه إلى روما للتحديث في شأن الرؤيا التي قيل إنه رآها فيما يرى النائم ، والنبوءات التي تنبأ بها . وفهم الراهب ما يتعرض له من خطر فاعتذر بمرضه ، وأنه لا يستطيع أن يتحمل مشاق السفر ، وأعرب عن خضوعه للبابا وإخلاصه له . وعاد البابا يلح على الراهب في أن يشخص إلى روما وعاد الراهب يعتذر . فلم يكن أمام البابا إلا أن يطلب إلى حكام المدينة إرسال الراهب إلى روما ، وكان الحكام من رجال سافونارولا فاعتذروا . وهناك أصدر البابا أمراً للراهب بأن يمتنع عن الوعظ والتنبؤ للناس . وخضع الراهب وقتاً ما ، ولكنه عاد إلى الوعظ وكأنه قد عزم على التحدي ، وأخذ يتكلم عن فساد بلاط روما ويدعو أمراء المسيحية إلى عقد مؤتمر لانقاذ الكنيسة الكاثوليكية . وابتدأ النضال بين أنصار الراهب وخصومه ، وظهر هؤلاء الخصوم متآلبين ، وقد شد من عزيمتهم سطوة البابا الذي كان يندر ويتوعد بانزال غضبه وحرمانه على أهل المدينة إن لم يتخلصوا من ذلك الراهب العاصي . وانتصر خصوم الراهب في الانتخابات وتولوا الحكم ، فصار رجال الحكم من خصوم الراهب .

وحدثت تلك المساة حين تحدها الرهبان من خصومه بأن يجرب تجربة النار دليلاً على صدقه ، وهي تجربة كانت معروفة في القرون الوسطى ، وهي تقضى بأن يمر داخل شعلة من نار ، فان كان صادقاً في دعواه فسينقذه الله من شرها ، وإن كان كاذباً فسيصلى نارها ويذهب إلى الجحيم ؛ ولا نريد أن نذكر ما حدث في ذلك اليوم من شغب بين الرهبان وانطفاء الشعلة التي أعدت على أثر مطر غزير ، ثم ما كان من القبض عليه والتحقيق معه وتعذيبه مع بعض أنصاره من الرهبان ثم إعدامه .

كان سافونارولا شخصية من أكبر الرجال الذين ظهروا في عهد النهضة ومن أظهرهم وأشدهم وطنية وأبعدهم عن الآثام ، ولكنه كان رجلاً متأخراً

عن عصره ، فكان من الصعب أن ينجح طويلا في غرضه ، وكان من المستحيل أن تنجح سياسته إذ لم يكن ذلك العصر ميداناً للزعماء الطاهرين ، بل كان عصر أولئك الذين كبرت آثامهم كما كبرت مراكزهم . ولو أن مدينة فلورنسا تمسكت به لوجد البابا سبيلا إلى مقاتلتها وتأليب الدويلات عليها ، ولعله كان لا يفعل إذا آنس في نفسه عدم القدرة ، بل يلجأ إلى طريقة أخرى عرفها أمراء الدويلات الايطالية في ذلك العصر وعرفها من بين البابوات إسكندر السادس من آل بورجيا . والطريقة بسيطة ، هي خنجر يرسل في يد رجل مغامر أو كأس شراب يحتوي مادة سامة ، فهذه الطريقة كان يلجأ الأمراء إليها إذا رأوا أن للنجم أنصاراً ، وقد يثير تحديه متاعب كبيرة . ومن المحقق أن البابا إسكندر السادس حين طلب إلى سافونارولا أن يشخص إلى روما لمناقشته في نبوءاته وفي أحلامه كان يعمل بوصفه رئيسا للكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه كان يعمل بوحى من سياسته . لأن دعوة سافونارولا إلى الفضيلة كان من الواجب على الرئيس الدينى الأكبر تشجيعها ، لا سيما أن الراهب أظهر مقبرة فائقة على التأثير في العقول ، ولكنه بدخوله معترك السياسة خاض بحر المخاطر ، فأودت السياسة به وبدعوته ، ولم تبق إلا ذكراه العاطرة .

حسن محمود